قصاصات ورق المسخرة

قصة بقلم حسني محمد بدوي

لعن الله الامطار . بسبب هطولها طوال الليل ، تأجلت المباراة اليوم !

الخبر مؤلم ! عرفه الان من المسؤولين داخل النادي ، وهو لا يريد ان يصدقه .. وها هي شمس شتاء الظهيرة الباردة تلوح ثم تغيب وراء غيوم داكنة تنذر بالمطر من جديد . واليوم : يوم جمعة ، يوم اجازته ، يوم نكد ، نحس ! فالى أين الان ؟ ! ولم يكن وحده ، لم تكن ساقاه ، قدماه وحدهما ، كانت تنحدر معهما ووراءهما وأمامهما فوق اسفلت الشارع الهابط من جبل «شلبوتي» المجاور : قوافل من سيقان واقدام تبدو كأرجل نعاج وتيوس وخراف، متجهة الى محطة ترام « الشاطبي » ، بادية الاكتساء بجلابيب ومعاطف و « عفاريت » وبدل ، وجلد وفرو وشعر ! الى أين اذن ؟ !

طوى جريدة « الاهرام » في يده ورجع مع الراجعين . سأله غلام صغير يبرز فوق جبهته زغب شعر ابيض :

ـ « الساعة ، كم ! »

لم يرد . ولما ابتعد عن الغلام خطوات ، أخرج سلسلة فضية من جيب صدريته ونظر في قرص الساعة ، رغم علمه بانها تلزمها « مسحة » منذ مدة طويلة ، فهي خربة ولا تعمل . و (بوغاز) الميناء لا يعمل ايضا ، مغلق بسبب تلك الانواء اللعينة .

اقترب من قضبان الترام . لمح صورته الشائهة المنعكسة على سطح بركة صغيرة راكدة . رأى قافلة القطيع قد انفرط عقدها، ولاح له الجبل العريض خاليا الا من بعض اشجار النخيل المترنحة. فأين يذهب هو الان ؟ انه لا يريد ان يعود الى شقته الصغيرة الكئيبة ، لا يريد ان يعود ليلقي بنفسه في وهدة تكاسله وهموده تحت اغطية سريره الغارق في لجة من الاشباح والاخيلة ، لن يعود لانه يقاوم رغبته في النوم في فترة ما بعد الظهيرة كي ينام الليل بلا أرق او كوابيس !

طالت وقفته وسط نفر من الواقفين المنتظرين تحت سقف المحطة : وجوه متجهمة مزموتة ، شفاه ممطوطة ، مدلاة . بوغت بنقرات اصابع فوق كتفه . تلفت فرأى زميلا خريج دفعته في الجامعة . تصافحا . تبادلا كلمات التحية ، وكلمات اخرى عن تأجيل المباراة .

كان في زميله هذا دائما شيء منفتر : هو ثقل دمه . اصر ان يعرف منه بفضول اين يعمل الان ، فقال صاحبنا :

ـ « في شؤون الافراد قسم الماهيات بمؤسسة القضاء على دودة القطن ! »

ـ « خريج قسم التاريخ وفي قسم الماهيات ! ؟ »

خفف صاحبنا من حدة تبرمه ، فقال متفكها :

ـ « لا تعجب فانا في ادارة كالمتحف في اعظم جبلاية دولية ! »

ـ « انت اذن احدى التحف ! »

استعدل نظارته فوق أنفه ولم يرد فأردف زميله :

ـ « ويمكن ان ندر عملة صعبة لرفع الماهيات ! »

وضحكا بفتور . ثم سأله صاحبنا :

ـ « الا تركب معي الترام القادم ؟ »

فرد الزميل وهو يشير براحته الى سيارة فاخرة تربض بجوار رصيف المحطة :

ـ « عربتي ! تفضل أوصلك! »

ـ «شكرا .. مبروك : عربة جميلة لا شك . مبروك يا سمير!»

ولما غاب عن ناظريه بعربته ، شتمه في سره وسب آباء من اورثوه ثراءه المفاجيء ! وها هي قباب الغيوم متلبدة في السماء ، داكنة تنذر بمزيد من المطر اللعين . لسعت قفاه قطرة ماء سالت من فم مزراب مكسور صغير ! متى يصحو الجو ؟!

جاء الترام وقفز فوق السلم . دفعه من ورائه راكب عصبي الى الداخل . تشاتما . كادا يتضاربان تدخل الكمساري بخفة دمه ، وألقى بينهما ببعض الكلمات . ضحكا وضحك معهما أغلب الركاب ، وراحوا يجترون كلمات اشبه بحبات الشعير ! لكن المرأة الحبلى المحشوة بينهم لم تضحك . في المحطة التالية « كامب شيزار» كانا قد تصالحا ، وراحا يتجادلان عن فريق الكرة الكاسب والفريق الخاسر من مباراة اليوم لو أقيمت . وأنزلقت اصابعه الى قرار جيب بنطلونه وعبثت بقروش دافئة وبشمرة بلح . ومرت امامه تلتصق به بطة سمينة : امرأة شهية . سرت نعومة اللحم تحت جلد الاصابع الى الدم الحار . ألح عليه احساسه بحاجته الى الغداء ، فقال لنفسه : «الى طبق مطعم الخواجة (يني) ، وذلك افضل من الصميت والجبنة ! »

نزل في محطة (الابراهيمية) !

تحسس جيبه ليطمئن على محفظته . الجيب عامر بالماهية . لكن تحت الجيب صدره منقبض ضائق بضيق لا تنجاب سحائبه

في سهولة . وهو كلما يدلف داخل هذا الشارع الجانبي لا يعرف لماذا يتسرب الى نفسه شعور مبهم بانه سيقع يوما نافقا عند منعطف زقاق من أزقته او سيعثر عليه الناس في صباح ملقي بجوار رصيف الخمارة .

يقول زملاؤه انه خالي البال . من منا خالي البال . المجانين لديهم ما يشغلهم . ألا يعرفون ان الوحدة وخلو البال : هم الهموم . وينصحه المزوجون منهم بان يظل تيسا بلا زواج ، فليس هذا زمان الزواج والسباع . ولكنه هو التيس الوحيد بالارادة المقطوع من شجرة . هو اليوم مثل الظهير المتقاعد الذي يلعب وحده بلا جمهور في الوقت الضائع . يقولون في المكتب : (اليوم طويل ، طويل لا ينتهي ! نحن ننتهي واليوم ينتهي !) . فما باله هو ، هو يوم الجمعة ؟! هم بدخول مطعم (يني) . أدار عينيه الرامشتين اثر عتمة المكان ، أدارهما في ذلك المستطيل القصير الضائق بالثلاث موائد الصغيرة التي تشغله ، لكنه توقف عند مدخل الباب الذي لا يكاد يقدر بعرض جسمه النحيل . وقف ينتظر . ومن ركن بالداخل غير مرئي نادى عليه الخواجه ان يتفضل بالدخول . هو يعرف ان المكان الوحيد الشاغر الان بالداخل يضايقه دائما ، وكثيرا ما تحاشى اختياره للغداء عليه . قال للخواجه اكثر من مرة :

ـ « زبائنك كثيرون ومحلك ضيق ، انتهز فرصة خلو اي دكان بالشارع الرئيسي واستاجره . »

فكم يضايقه مقبض الماسورة الذي ينفرز في جنبه فضلا عن نثار الماء الصاقع المندفع من صنبور الحوض اما الترابيزة التي يضع عليها الطبقين فقصيرة وشبر في شبر . توجد في الحي مطاعم فسيحة ، زرائب مريحة الا انه تعود على طبائخ (مدام يني) المسبوكة ، وهي تولع بتقليد المسامط الشعبية خاصة اعدادها طبق (لحمة الراس) بنكهته الطيبة وبأخلاط توابله اللذيذة . ظل واقفا . تجاهل مناداة الخواجه له . تشاغل متسليا بالحركة الهادئة في الشارع الرئيسي . تلهى بالنظر الى سيقان النساء والطالبات اليونانيات . تقليعة الجوارب الشبكية السوداء تضايقه ، ورغم ذلك تلتذ عيناه بامتصاص بياض البشرة من خلال مربعات النسيج الاسود . و (مدام يني) لا بأس بها ، وعلى أي حال ليست كالمجففاوات والنعاج والماعز في مكاتب المؤسسة ، الا(منال) السكرتيره الجديدة : كفيلة وحدها بأن تثير اعصارا من تشنجات الجنون . عودها بض فارغ (كنخلة) حبلي بثمار المانجو الناضجة. لينعم الراقب العام بلحم الغزال والسمان ! أفعمت خياشيمه رائحة تقلية الملوخية فتبلع لعابه ، وظل واقفا متجاهلا مناداته . فرك بكفه الجريدة الملفوفة في قبضته . رفع رأسه . السماء : تكاثف تلبدها بالغمام . لاح له شعاع وان مندس في كنف الغمامات الرصاصية . واحس ان جدران العمارات صلبة ومناسبة في صمودها الشامخ الى الاسطح والابراج والجواف . والشعاع يضرب عبر غبار المسافات الشاسعة الباردة ويدفيء جير البيوت المنشع بماء المطر والرطوبة الملحية ، جير جدران تقوم وراها حجرات، حجرات تنعم بأجواء الالفة العائلية وتستدفيء بالحب ! وأستقرت عيناه على صورة فتاة منشورة بالجريدة التي لم يقرأها ، مرتا على خبر تحت الصورة في ذيل الصفحة : (فتاة حياتها في خطر، ساهم في البحث عنها ، ولك مكافأة سخية ، اذا كنت تعرف هذه الفتاة ...) ـ ورمق الصورة فاذا هي فتاة جميلة تنفرج شفتاها عن ابتسامة ملائكية ـ (ونستطيع الارشاد عن مكانها فيمكنك ان تقدم خدمة جليلة لوالدتها التي تبحث عنها في كل مكان وهي مصابة بمرض غامض اشبه بازدواج الشخصية قد تراها في الاماكن التي يتردد عليها الاطفال المشردون والمرضى والفقراء والمهاجرون . اخر مرة شوهدت فيها كانت بمدافن « المجاورين » حيث زارت احد العجزة المعدمين المهاجرين المقيمين بالمدافن وأعطته جبنا وملحا وتركت له معطفها ليقيه من البرد ثم انصرفت . من يجدها يتصل باهلها في شارع الدلتا الخضراء رقم ٦٧ ـ بمصر الجديدة) .

رمق الصورة مرة اخرى وملت عيناه قراءة الخبر ، ورفعهما ليغمر حواسه بألوان وطيات بضعة سراويل حريمية منشورة على حبل شرفة ويعبث بها الهواء ! مسح بكفه كتف جاكيته الرمادية المبتلة . رمق فردتي حذائه الموحلتين بنظرة شبه غائبة . تذكر ما فكر فيه البارحة ، وهو ان يعرج داخلا بعد الغداء محل « كاوتشوك الكونترجي » ليمرر أبرة ماكينته على لسان الفردة اليمنى ويركب لوزة حديد بنعل الفردة اليسرى ويلمعها . تناهشت صدره اخذات ضيق مبهم وغم حمضي ! ربما لا يلحق مواعيد دخول حفلة الساعة الثالثة ، بل ربما لا يكون الفيلم من النوع المثير ، وحبذا لو كان بوليسيا عنيفا ! أدار رأسه وراءه وتفحصت عيناه مكانا خاليا ودخل . اذن فليتفد على مهل ، ويدخل دار السينما المجاورة وليؤجل تصليح حذائه الى وقت اخر . ابتسم لـ (يني) الواقف وراء الرخامة المتسخة كانثى الحلوف الحبلى .

جاءه في صمت . طلب منه طلبه وغمز له بعينه وقرصه في بطن كفه . وسرعان ما جاءه (يني) بطبق (لحمة الراس) ، ثم دس خفية بجانبه في الركن غير الظاهر كوب النبيذ الهاضم المعتاد . انكب منهمكا . سقط رأسه في الطبق . عض الجلد وسلخه بأسنانه . لعق الدهن السائل . نهش لحم الصدغ . شفط المخ . ومد اصابعه الخمس في تجويف العين . أخرج العين. قذفها في جوفه . احكمها تحت ضروسه . ضغط ففقأها . مضغها ، ازدردها . عرق . اجترع كوب الماء . جاءه (فلفل) الصبي الاسمر بكوب اخر . اجترعه واجترع النبيذ ايضا . سها ثواني فتباطأ مضغه ثم ما لبث ان اسرع وأسرع حتى انتفخ وكاد ينفجر . سمع الزبون المسلول الغائص في أقصى الركن يزجر (فلفل) الصبي على تراخيه في الخدمة . فعيره (فلفل) بنحافته العظمية رغم شدة نهمه ، فشتمه (يني) ! وضج المطعم الصغير بالقهقهات الهزيلة . قوي عرق لسانه ، فكاد ان ينقلب مشاركا بتعقيب فكه الا انه قام ودفع الحساب واندفع خارجا . تلقفه الهواء البارد في الشارع الرئيسي كانعس خلق الله ، كغريب يجوس عالما غريبا ، رمق لافتة الاعلان المعلقة فوق باب السينما . استطلع الصور فاستشف انها لا توحي بالمتعة . وأحس بثقل جسمه بجيوش من نمل تمشي تحت الجلد . تثاءب . خطر له ان يعرف اسماء افلام بقية دور السينما بالمدينة ، فكاد يفك لفة الجريدة في يده ، الا ان تيار الهواء اللافح رده عن ذلك . أحس بشيء كالخدر المدغدغ يسري في بدنه ، احس بوجنتيه تلتذان بنشوة رطبة . شعر بدوار خفيف يطوح بدماغه . اشعل سيجارة . قبالة مبنى السينما يوجد المقهى . دخل . انتحى ركنا بعيدا عن مدخل الباب بجوار النافذة . طلب الشاي . دارت عيناه في المكان . تجشأ . ندم لانه لم يرتد معطفه ، لكنه يضيق بالجلوس في مدرجات الملعب مثقلا بالمعطف ، يعوقه عن الحركة السهلة والانفعال الطليق. مد ذراعه في كسل وأرخاها ، تركها على ظهر الكرسي الخالي لصقه ونسيها كأنها ليست ذراعه . لم يكن بالمقهى وجه يستحب ان يتبادل معه الكلام . اغلب الوجوه مألوفة وكثيرة ، منهمكة بلعب الطاولة والدومينو . وقطعة طباشير منتصبة فوق اذن (الجرسون)

المستند بجزعه الى (الناصبة) يشد انفاسا مفرقرة من بطـــــن الشيشة . وحفنة شبان خنافس كسالى يلوذون بركن قصـــــي ويتهامسون كأنهم يدبرون جريمة ! جاء الجرسون (عم جابـــر) بالشاي الساخن . وقعت عيناه في الركن الملاصق للمدخل على الخواجه المجنون . رآه ينحني مداعبا قطه بيضاء مسخه ويمســـك بأصبعه شيئا يبدو مثيرا لخياشيمها . تمد اليه فكيها ، تفتحهما، وكلما تهم بخطف الشيء يبعده عنها فيزيد من لهفتها عليه . أدمنت اللعبة فراحت تبادله العبث بكفها لكن عينيه من خلال غشاوة دوار خفيف ناعم كعرف ريشة ، راحتا نرفان فوق بلاط الارضيـــــة المنمش . لمح من خلال زجاج النافذة غادة حسناء ذات وجه طفولي ينم عن صفاء نفسها ، تمشي بخطوات خفيفة على الرصيف المواجه وشعرها كغدير تمتطه تيارات الهواء وتتلاعب به فيندفق بنعومته كشلالات حول رأسها . انتابه اضطراب وهب واقفا . قام واندفع وراءها غير عابىء بأنظار الناس والهواء البارد الذي تشبع بطيب البخور . كان كسولا ملولا يستجدي أية تسلية وها هي مغامرة العمر . وكأنما هي طيف يخترق الجدران. طواها الزقاق، زقاق ممدود نحيل خال منحدر. وهو وحده وراءها. افضى بهما الزقاق الى الارض العراء خلف (مستشفى الولادة) و (ملعب الاتحاد) . الدنيا خلاء كخلاء البراري . كاد يندفع نحوها ويعتصرها ويدمجها في صدره . قنع باقتفاء أثرها خطوة وراء خطوة كوجيف دابة هائمـة احس كأنمـــا يتعقبها منذ أزل قديم ولولا عشرات الطريق لنالها . دلفت من خلال باب حديدي اسود عال الى جوف ارض المدافن والمقابر وممراتهـــا وحشائشها الوحشية وحشراتها المفزعة . زكمت أنفه اخـــلاط رائحة الصبار وتراب الموتى وحفرياتهم المرعبة ازدادت ضربات قلبـه . لمـح سلسلة فضية تتدلى كثعبان من حقيبتها . وجد نفسه يعدو وراءها عدوا جنونيا . خايله بريق السلسلة ، رأى وجهه منعكسا عليها ، متعدد الصور . ضاعف من سرعـة الجري . رأى مدرجـــات الملعب حوله وقد أكتظت بمخلوقات صغيرة غريبة كالضفادع تعفر أفواهها المخيفة . نظر تحته عند موطىء قدميه فوجد نفسه في مستنقع راكد ولم يتقدم شبرا واحدا . وما ان هم بالاندفاع حتى بوغت بشـــيء قوي غامض قد دفعه في مواجهتها مباشرة فاختفت كهبو البخار أو الروح . تحسس جيبه فلم يجد ساعته الفضية . لم تكن حوله الا مقابر صامته صمت الابد ، الا جدران مدافن موحشة . بوقـــع ان تثب برأسها من خلف لحاء شجرة سنط او تظهر من وراء احـد الشواهد الرخامية الباردة ، لكن كفنا رهيبا هب ناهضا عنه التراب والحناء واستقام فوق القبر وراح يفك نفسه ، فاذا هو قدم ملفوفة في الجبس ، سرعان ما تهدمت اربطها تاركة جيفـــة . وفجأة : قذفت في وجهه كرة صلبة كجمجمة . ارتطمت برأسه فدكته فـي الارض ، دكته في قاع قبر محفور لمائت لم يجيء به مشيعوه بعد ! واذا بأسراب من خفافيش ملتزجة معلقة في الظلام العفر الخشن ، تنسلخ وتنقض لتصفعه بمنة ويسرة بأجنحة مصلصلة حادة كالمقاصل فتجمد ، وحاصرته توابيت فرعونية قديمة فوقها كتب سماويـــة ! انحنى ليلتقط احدها تبركا واحتماء وليخلخل ثلج جسمـــــه . انحنى ليلم حطام زجاج نظارته فاذا برأسه يتناثر اشلاء كشظايا البالون المنفجر ويتساقط كقصاصات ورق المسخرة الملون . ورفـع ذراعه المنملة الممددة على ظهر الكرسي الخالي لصفه ، فاذا بالجريدة فوق الترابيزة تطالعه والجرسون يلوح له بكفه بلا معنى . تحسس نظارته . رمق الرصيف المواجه . وجده خاليا مغسولا بمـــاء المطر . رأى الخواجه لا يزال يعابث القطة مستمـــرا فـي اللعبـــة دس كفه في جيبه وقلب صفحات الجريدة يبحث عن الساعـــة والخبـــر !

الاسكندرية

حسني محمد بدوي

سليمان فياض

العيون

الرباط

مجموعة قصصية جديدة لهذا القصاص الفنان الذي يعد في طليعة القصاصين العرب تعبيرا عـن أزمـــة الانسان العربي في المجتمع الحالي .

منشورات دار الآداب — صدر حديثا — الثمن ٣٠٠ ق.ل.